عزيزي فريد الأطرش

بقلم : أحمد فؤاد حسن

obeikandl.com

obeikandl.com

الخطاب الأول

« عزيزى الراحل ..

كتبت لك هذه الرسالة فى صيف العام الماضى ..

وقررت أن أنشرها مع بداية العام الجديد ..

ولم أكن أدرى أنك لن تقرأها أبداً .. .

فقد رحلت عنا إلى الأبد .....

وجلست أحاول تحويرها لأخاطب فريداً الراحل ..

وعبثاً حاولت ... !

وها هى ذى كما كتبتها تماماً . وأنت معنا ..

لأننى أحس دائماً أنك معنا .

* بفنك .

* بوفائك .

* بصداقتك الصادقة التى لا تموت » .

.. .. .. كما أن الزواج والاستقرار يا عزيزى فريد كانا أبعد شيء عن حياتى ... ولم يخطرا على بالى قط . فأصبحا أمراً واقعاً وأصبحاَ حياتى كلها . فكذلك صداقتنا كانت فى يوم ما أبعد شيء عن حياتى . . فأصبحت صداقة من نوع جديد . . فريد . .

صدقنى يا عزيزى أننى وكل جيلى الجديد من الموسيقيين (الذى أصبح ليس جديدا الآن) . كنا وقتئذ ننظر إليك كما كان ينظر الضباط الأحرار إلى الأسرة المالكة قبل الثورة ... لماذا ؟

أقول لك لماذا

كان جانب الكفاح فى حياتك خافياً علينا .... !

حينما بدأت حياتنا الفنية العملية لم نكن نعرف عن فريد الأطرش غير أنه فنان أرستقراطى النزعة .

لم نعرف عن فريد الأطرش غير أنه يسكن فى برج عاجى ملكى فوق قمة عمارته الشاهقة فى أجمل موقع على نيل القاهرة يستقبل فيه أصدقاءه من الأمراء والوزراء والحكام فى العالم العربى ..

ويمارس فيه ومنه هواياته الارستقراطية على أعلى المستويات . النساء ... الخيول ... اللعب ...

وصدقنى أيضًا يا عزيزى فريد – أن هذه الصورة الفاخرة أبعدت عن آذاننا الغضة التى كانت تلتقط كل شىء حينئذ ... أبعدت عنها روائعك اللحنية الأولى .. وصوتك السليم .. ، السليم الذى لا يهرم .

أبعدت الصورة الأرستقراطية الفاخرة .. ألحانك ... وصوتك عنا .. ولكن إلى حين .

وتمضى الأيام ...

وتكتسب الأعواد الطرية صلابة .. وتصبح البراعم الفنية زهوراً فواحة . تنشر العطر حولها أينما تحل ...

وبدأت أنت التقارب ...

بدأته بتجربتك الكبيرة ... وذوقك البالغ الرقة إذ جاءنى يوماً صديق لى ولك يقول :

– الأستاذ فريد قال فيك أمس كلاماً كبيراً ...

– الأستاذ فريد الأطرش ... وماذا قال ... ؟

– قال إن أحمد فؤاد حسن قدم للموسيقى ... وقدم للموسيقين ...

وفعل كذا .. وكذا .. وإننى سوف أكون سعيداً جداً إذا تعرفت به . وسوف أكون سعيداً جداً إذا تعرفت به . وسوف أكون سعيداً أكثر إذا نفذ لى موسيقاى ... وألحانى ...

وكان اللقاء على يد الصديق العزيز الأستاذ جلال معوض ... والمناسبة حفلة أضواء المدينة فى افتتاح مشروع السد العالى فى يناير ١٩٦٠ . فى أسوان .

وكما جمعت هذه الحفلة نجوم السياسة العالمية ... فقد جمعت نجوم الغناء فى الشرق العربى وكان الجو الفنى فى هذا الوقت رائقاً بلا شوائب .. صافيًا بلا غيوم .. فكنت ترى فى الحفلة الواحدة العديد من النجوم ... كنت ترى الحفلة تجمع فريداً وحليماً ووردة وشادية وفايزة وصباح ونجاة وفايدة وشهرزاد وقنديل وطلب وغيرهم .. وتمر الحفلة بلا أية متاعب ولا احتكاكات .

أما اليوم وللأسف ، فيجب أن تكون كسينجرى المواهب لكى تستطيع أن تجمع اثنين من هؤلاء النجــوم فى حفلة غنائية واحدة ..

إن لم يكن فى حفلة استقبال واحدة ...

وعندما تقابلنا فنيًّا أولا . . ثم دعوتنى كصديق إلى بيتك ومحافلك . . وجالستك .. وعاشرتك صدقت المثل الشعبى العميق المعنى .

– تعرف فلان ؟

– أيوه .

– عاشرته ؟

– لا .

– يبقى ما تعرفوش .

نعم يا عزيزى الصديق فريد . . فعندما عاشرتك زال الغلاف المفتعل الذى كان يحيط بصورتك . . وبصوتك . . وبألحانك . . وأخذ التقارب بيننا ينمو ببطء وبعمق ، وبفهم . حتى أصبح صداقة أكبر من الصداقة . . وأخوة وأعمق من الأخوة .

لم تستطع الخلافات الفنية الطارئة أن تؤثر فى هذه العلاقة بل ان كل خلاف ، ولو أدى إلى الانفصال الفنى بيننا ، كان يدفعنا إلى التقارب الأكثر . حتى نؤكد لنفسينا وللناس أن علاقتنا أقوى من أى شىء .

وأصبح لا يمكن أن يجمعنا بلد واحد بدون أن نكون معاً يومياً فى القاهرة . . فى فى بيروت . . فى لندن فى باريس . . فى الأردن . . فى المغرب . . فى الخرطوم . . فى دمشق . . فى الكويت . . فى ليبيا . .

ومن هذا الرباط القوى المتين . . ومن خلال هذه المعايشة الدائمة أعتقد أننى أستطيع أن أكتب لك فى ما يعن لى حول فريد الأطرش الفنان . . وفريد الأطرش الإنسان . .

يا عزيزى فريد . . .

لا شك أن لك قصة كفاح كبرى فى بدء حياتك الفنية تتواكب مع هجرتك إلى عاصمة الفن القاهرة . . أنت والمرحومة والدتك . . والمرحومة ذهبية الصوت وفقيدة الغناء العربى أسمهان أختك ، وأخوك العتيد فؤاد . . .

عملك كبائع بسيط فى محلات بلاتشى بالموسكى بستة جنيهات شهرياً ، عملك فى كازينو بديعة مغنياً وملحناً بما يوازى هذا المبلغ تقريباً ، إلى نهاية هذه السلسلة من شق الصخر . والتى لا يمكن لفنان مرموق له مكانته فى غابة الفن (عفواً أقصد فى عالم الفن) إلا أن يمر بها ويتجاوزها .

وأنتجت هذه المعاناة بالطبع مجموعة لحنية أصبحت فى وقت ما قوتاً يومياً

للجماهير العربية من المحيط إلى الخليج .

« مجموعة الموسيقى الراقصة » .

« مجموعة الأوبريتات الفيلمية » . . . وهى فى رأيى ثروة لحنية يمكن الآن والآن بالذات . . أن تحول إلى أعمال مسرحية . . وقد يبدو هذا المشروع خيالياً ولكن أين هو المشروع الناجح الذى لم يبدأ بالتصور والتخيل .

« مجموعة الأغانى القصيرة الخفيفة من أول « ياريتنى طير » إلى « يابو ضحكة جنان » .

« مجموعة الأغانى الكبيرة . وعلى قمتها هاتان الأغنيتان ، بل هاتان الظاهرتان الفنيتان » .

١ – الربيع .

٢ – أول همسة .

ولا أعتقد أن مطرباً فى العالم العربى ، بل فى العالم كله قد واتته الجرأة على أن يظل يغنى على المسارح ، أغنية ما ، لمدة ربع قرن أو يزيد كما غنيت أنت هاتين الأغنيتين وكأنك كنت تعرف النتيجة تماماً فى كل مرة . . .

وكم كان أصدقاؤك يشفقون عليك . وعلى نتيجة هذه الجرأة الفائقة فى كل مرة تنوى فيها غناء احداهما .

ولكن ما يحدث من استقبال الجماهير لهما وتفاعله معهما دائماً كان شيئاً مذهلا . بل هو ظاهرة فنية تدعو للدراسة والتحليل .

هل هى الألحان . . هل هو صوتك . . هل هو ارتباط كل لحن منهما بذكريات معينة لكل فرد من هذا الجمهور العريض ؟

أعترف أننى لست أدرى . . .

وأعترف أيضاً أننى فى كل مرة أستمع فيها إلى أحد اللحنين أطرب وأحس بما

يشبه الألفة . . والصداقة التى تجمع بين إنسان . . وشىء غامض ما . . .

وبرغم أنك يا عزيزى فريد قد احتللت بالتأكيد أحد الأركان الأربعة فى قمة الهرم الفنى فى عالمنا العربى .

وأصبحت عضواً دائماً فى نادى القمة الذى تقتصر عضويته الآن على أربعة فقط .

فإن نوعاً من المرارة الفنية ، يقفز إلى لسانك . . ويعذبك مذاقه كلما تذكرت قصتك مع أسطورة الغناء أم كلثوم . زميلتك فى عضوية نادى القمة .

« كل ما وصلت إليه يا عزيزى فريد كان فى كفة ، ولحن لك تشدو به أم كلثوم كان فى كفة أخرى وأنا لا ألومك . . فألحان الموسيقار بناته . .

وأين الأب الذى لا يتمنى أن يزوج ابنته لرجل يضمن لها سعادتها وهناءها .

وصوت أم كلثوم يضمن النجاح والانتشار لكل لحن يقترن به . لا ألومك يا عزيزى العزيز فى هذا المطلب العادل . . .

ولكن ألومك فى الاستمرار فيه . .

فلقد عرضت عرضك وطلبت طلبك وصار للموضوع مباحثات طويلة كالمباحثات المصرية البريطانية أيام زمان إلى أن حدثت القصة التى كان يجب أن تختم الموضوع .

عندما اتصل بك الزميل أحمد الحفناوى يطلب منك الحضور لبيت سيدة الغناء لتسمع منك ما عندك . . وطرت فرحاً . وطرت إلى بيتها حاملا عودك وآمالك وفى المقابلة الفنية الكبيرة استقر رأيها على أغنية (وردة من دمنا) شعر الأخطل الصغير . . وكان لها شرط واحد هو ألا يعلن عن ذلك إلا فى حينه عملا بالحديث الشريف (استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان) ولأسباب أخرى لست فى حل من ذكرها الآن . .

وحددت ميعاداً لبدء البروفات . . وعندما حان هذا الميعاد تبدد كل ذلك . . وكأن شيئاً لم يكن . . بلا أى سبب معقول . . .

عزيزى الإنسان فريد . . .

obeikandi.com

قد لا أعدو الحقيقة إذا قلت لك إنك أعجب انسان قابلته فى حياتى .

أنت طيب وقاس ،

أنت غنى وفقير ،

أنت صحيح ومريض .

أنت باختصار مجموعة متناقضات تشكل إنساناً لا يملك كل من يعرفه إلا أن يحبه . وإلا أن يشعر أنه لا يستطيع أن ينساه أو يبتعد عنه .

أنت طيب وقاس بدرجة مؤلمة .

فكل إنسان يعيش فى مجتمع ، قد اكتسب مع الزمن كنترولا معيناً يحدد له مدى صراحته فى تعامله مع الناس ، إلا أنت .

فلم تعترف بعد بهذا الكنترول أو لم يتمكن هو من التعايش مع طبيعتك الطفلة .

وأنت غنى وفقير بدرجة مؤلمة .

فكل إنسان يحدد لنفسه المدى الذى يستطيع أن ينفق فيه والمدى الذى يستطيع أن يدخره لأيامه المقبلة . . . إلا أنت فقد شاهدتك بنفسى تفقد عشرات الألوف فى ليلة واحدة .

وحضرتك بنفسى وأنت تطلب أن تعمل وأن تلحن وتغنى للإذاعة والتليفزيون لتستطيع أن تدفع ديونك وتعيش .

وأنت صحيح ومريض بدرجة مؤلمة .

فكل إنسان يخاف على نفسه وتتملكه غريزة البقاء إذا ما أتاه النذير بخطر معين على صحته ويبدأ فى تلافى جميع الأسباب التى أدت إلى هذا الخطر الذى يهدده ، إلا أنت .

فعندما ينصحك الناصحون تقول لهم ضاحكاً :

« إنى مؤمن أن الله لن يمهلنى ساعة واحدة عن الميعاد الذى حدده لوفاتى سواء

أكنت ، مريضاً أم صحيحاً » ثم تضيف مقهقهاً : أتدرون ماذا حدث للطبيب الذى حدد لى عاماً واحداً أعيشه بعد أزمة القلب الأولى التى حدثت لى . . لقد مات هو بعدها بقليل وعشت أنا عشر سنوات أخرى ومن يدرى كم سأعيش أيضاً .

بقيت لى يا عزيزى فريد نقطة واحدة فى حياتك كإنسان . نقطة خاصة جداً . يمكن أن تملأ كتاباً كاملا . . ويمكن أن نختار لها عنواناً (فريد والنساء) أو (فريد والزواج) .

ولكنى هنا . وفى هذه الرسالة القصيرة سأقول رأيك أنت فى هذا الموضوع ثم رأى الناس . . ثم رأيى أنا .

١ – رأيك أنت يا عزيزى – أنه وعلى كثرة من عرفت من النساء . . من مختلف صنوف النساء لم تعثر على المخلوقة التى تستطيع أن تشدك من عالمك الحافل بكل ألوان المتعة ، وبكل مباهج الحياة ، وأن تعوضك داخل سجن الزواج الذهبى . . عن دنياك الرحبة الفسيحة الحاشدة بمئات الأصدقاء من كل جنس ولون .

٢ – رأى الناس عموماً : وأصدقاؤك خصوصاً – أنك أبعد الناس عن الزواج . . ولا سيما الآن . . . وأنك ستجنى على من ستتزوجها . . وأنك لن تستطيع بأى حال من الأحوال أن تعرف الفرق بين الحياة الزوجية بكل قدسيتها . . وبكل قيودها . . وبين الحياة الحرة . . وخصوصاً حياتك أنت بالذات .

٣ – رأيى أنا : يا أخى العزيز فريد . . . أنك كنت مع النساء كلاعب كرة القدم يجرى بكل حواسه وطاقته وراء الكرة . وعندما تكون فى متناوله يتخلص منها بسرعة إلى لاعب آخر . . . وهكذا دواليك .

والآن . . هل تستطيع أن تكسر قواعد اللعبة وتحتفظ بالكرة وتجرى بها خارج الملعب . . إلى بيتك . . هل تستطيع . . . ؟

إن كنت تستطيع فافعل فوراً وبسرعة .

لا تستمع إلى من يحاولون إثناءك عن عزمك . . ولو كانوا أقرب الناس إليك . . اعزم فوراً . . وتوكل . . وأنا واثق أنك ستبدأ حياة جديدة . . جديدة فى كل شيء . . وستدخل عالماً آخر من المسئوليــة المحببة إلى النفس . . وستفتح باباً إلى دنيا من الإلهام والإبداع الفنى . . سترضيك .

وترضى جمهورك العريض .

وترضى معشوقتنا الإلهية الأبدية :

« الموسيقى » .

obeikandl.com

الخطاب الثانى

عزيزى الغائب . .

بلا وعى . . وبدون مقارنة . . وبرغم أننى لا أمسك القلم لأكتب إلا كل حين . . فقد وجدت نفسى بحاجة لأن أتحدثك إليك .

وهأنذا أكتب إليك مرة أخرى .

حقًّا . . اختلفت المرتان اختلافاً كبيراً .

فى المرة الأولى كنت موجوداً بيننا . . كنت موجوداً . . حاضراً . . تملأ الدنيا حواليك بهجة ومرحاً وانطلاقاً . وهذه ليست مبالغة .

إنها الحقيقة . . فهذا هو أنت يا فريد . . أو ما كنت .

أنت لم تكن تطيق لليل نهاية . . ولا تطيق للنهار وجوداً . . لا تعترف بانفصال مؤقت بينك وبين من تحب . إنك تريدهم معك دوماً . . يضحكون . . يمرحون . . يلعبون . . يستمعون إلى ألحانك وصوتك . . وتستمع معهم ، وكأنك تستمع إلى إنسان آخر . وألحان تسمعها لأول مرة . . تطرب لها وتعجب بها .

وفى هذه المرة . . أنت غائب . . بعيد . . فى عالم آخر مجهول ، مجهول .

إنى وجدت نفسى بحاجة لأن أتحدث معك . . أو أكتب لك . . وأنت فى هذا العالم المجهول وبى ثقة غريبة أنك تسمعنى أو تقرأ لى .

لماذا ؟

لست أدرى . . ولست أريد الخوض فى فلسفيات روحية . . أو البحث فى ما وراء الطبيعة . . ولكن هذا هو ما أحسه . . وأصدق ما نملك فى حياتنا هو الإحساس .

أتذكر يا عزيزى فريد عندما كنت أنصحك أن تدخر لغدك شيئاً ينفعك وقت أن ينفض السامر . . ويتفرق الناس من حول الفنان عندما ينطفئ بريقه .

قطعة أرض . . عمارة . . أى شيء من هذا القبيل وأقول لك لقد أضعت الملايين . . واستمتعت بكل شيء وعشت ما عشت من حياتك بالطول وبالعرض .

فلا أقل من أن تعمل حساباً لأيام الجفاف الفنى . .

وتقول لى فى ثقة غريبة لن أعيش أيام جفاف فنى . . وسأموت كما عشت أستمتع بحياتى حتى آخر لحظة . . ولن أتعمد أن أترك شيئاً . . ولمن أترك من بعدى . . ؟ أنهم . . أنهم سينسوننى ويتصارعون فى سبيل ما تركته فلأرح نفسى وأريحهم .

صدقت يا فريد . . فما حدث بعد ذهابك . . كان مأساة أخرى . . برغم قلة ما تركته نسبيًّا . . برغم قلة مالم يمهلك القدر لتصرفه . . فقد أحدث معارك . . وفرقعات بين الإخوة . . وبين الأصدقاء والصديقات . . وظهر لك أقارب وأبناء وحفدة يعلم الله أين كانوا فى حياتك وخاضت الصحف فى هذا الموضوع السيئ . . وأفردت له صفحات وصفحات وأعداد خاصة وعامة .

وأمرح يا عزيزى فريد وأطرب . . فقد لحقك الحسد حتى وأنت ذكرى . . حتى وأنت فى عالمك المجهول ولكنه حسد نبيل جميل واسمع القصة بأكملها.فى لقاء لى مع الفنان الكبير . . المهندس الملحن أحمد صدقى والذى أقبل بكل طاقته الفنية وإمكانياته الإبداعية فى هندسة البناء والفن التشكيلى . . أقبل على إعادة بناء مقبرة جديدة رائعة تضم رفاتك . . وأختك ذهبية الصوت أسمهان .

فى هذا اللقاء قال لى أحمد صدقى . . إننى أحسد هذا الرجل . . . أحسد فريد الأطرش . قطعاً إنه عمل خيراً كثيراً .

قطعاً إنه قريب من الله . . .

هل تتصور أنه للآن وبعـد مرور شهور على وفاته لا يمر يوم واحد . . إلا ويأتى لزيارته أشخاص مجهولون . سيارات تقف وينزل منها راكبوها ليقرءوا ويقرءوا على روحه

بعضاً من آيات الله . . أناس مختلفو الشخصيات يأتون جماعات وفرادى ليتصدقوا على روحه ويقرأوا له الفاتحة . . وهذه الحسناء الغامضة . . الملتفة بعباءة فضفاضة من الحرير الأسود . . لا يمر يوم إلا وتوقف سيارتها بعيداً . . وتأتى إلى القبر لكى تضع باقة من الزهور . . ثم تنسحب فى هدوء .

وكما وجدت نفسى يا فريد بحاجة إلى أن أكلمك . . أو أكتب لك . . وجدت نفسى وقد فرغ منى الكلام . . ولم أملك إلا أن أقول لك : إلى اللقاء .

أحمد فؤاد حسن

openkandil.com